# كوفيد -١٩ والحاجة إلى تكامل للعلوم جميعًا

أ.د. أحمد إسماعيل حجي *

ويزداد التعقيد تعقيدًا بهذا الغازي المُدمِّر كوڤيد –١٩، الذي غزا العالم كله: شماله وجنوبه، شرقه وغربه، وقد نُشرت تحذيرات سابقة منذ عدة أعوام عن هذه الجائحة، منها ما جاء في كتاب ديڤيد كوا منذ عام ٢٠١٢ David Quammen: Spillover, Animal Infections and the Next Human Pandemics-W.W. Norton and Company-2012، وقد تُرجم الكتاب إلى اللغة العربية ونُشر في سلسلة عالم المعرفة التي تصدُر بالكويت في جزءَيْن.

إذ جاء في الصفحة رقم ١١ بالنسخة العربية التي ترجمها الدكتور مصطفى إبراهيم فهمي ما نَصُّه: أنه يوجد احتمال لوقوع جائحة وباء بسببِ مرضٍ جديدٍ علينا وليس قديم، وستكون الجرثومة المُسبِّبة لهذا المرض أيضًا غير مألوفة لنا، وغالبًا من الڤيروسات، هذا الڤيروس الجديد لن يأتي إلينا من الفضاء المجهول، بل ستنبثق الجائحة كما يتوقعون نتيجةً لفيضٍ من العدوى بجراثيم تصل إلى البشر من حيوانات غير بشريَّة، كما كانت الحال مع الإيدز والإيبولا والهندرا... إلخ، قد يكون هذا الحيوان أحد قرود أفريقيا، أو أحد القوارض والجُرْذان من الصين، أو من الخُفَّاش في ماليزيا. وسوف يُسهِّل من انتشار الجائحة ما يحدث الآن من سرعة الانتقال والسفر خاصةً بالطيران؛ حتى إن الوباء قد ينتشر عالميًا في ظروف ساعات.

على أن بعض العلماء يخشون من أن جائحة الوباء التالي التي تهدد العالم قد تنبثق عن ڤيروس معروف ولكنه يكمن في عائل خازن، متربصًا لوجود الظروف اللازمة لانتشاره وانتقال العدوى للإنسان. مثال ذلك ڤيروس الكورونا (الإكليل). سُمِّي هذا الڤيروس بالكورونا أو الإكليل؛ لأن المشهد تحت الميكروسكوپ تبدو فيه جُسَيمات الڤيروس وقد أحاطت بها نتوءات مستديرة بارزة كأنها إكليل.

* أستاذ التربية المقارنة والإدارة التعليمية – كلية التربية – جامعة حلوان – مصر.

فيروس كورونا السارس يسبب مرض السَّارْس الذي يدمر سريعًا الجهاز التنفسي، ويصعُب علاجه بعد الإصابة ويؤدي إلى نسبة وَفَيَات عالية. وقد أخذت تظهر الآن بعضُ حالات فردية منه بين تجمُّعات الحجاج في بعض البلاد.

ولم تلبث الحكومة الصينية أن أعلنت عن أول حالة إصابة بفيروس كورونا (كوفيد -١٩) في مارس ٢٠٢٠، حتى اجتاح الوباء أنحاء العالم في خلال أيام، وأخذت دول العالم تعلن عن اكتشافِ حالاتِ إصابةٍ بين أبنائها؛ وصاحَبها اتخاذ إجراءات احترازية في المطارات والموانئ البرِّية البحرية، والكشف على المسافرين؛ وبخاصة الذين يجيئون من خارج البلاد.

واستمرت بلاد العالم تتخذ إجراءاتٍ داخليةً لتقليل انتشار الوباء بين مواطنيها والسعي إلى عدم التوقف الكامل للأنشطة المختلفة، ومنها بالطبع التعليم. ويشهد التعليم في زمن كوفيد -١٩ أحداثًا جسامًا هددته - ولا تزال - بأزمة كبرى، هي الأخطر في عصرنا هذا:

١. شهد قُرابة مليار ونصف المليار طالب في أكثر من مائةٍ وسبعين دولةً إغلاق مدارسهم ضمن تصدي حكوماتهم للجائحة، وسعت الدول لضمان استمرار التعلُّم للأطفال والشباب بطرقٍ مختلفة. وجاء ذلك في وقت تعاني فيه هذه الدول أزمةً تعليميَّةً عالميَّة؛ إذ هناك طلاب كثيرون في المدارس لكنهم لا يتلقون المهارات الأساسية التي يحتاجونها في الحياة العملية. ويُظهر مؤشر البنك الدولي عن (فقر التعلُّم) - أو نسبة الطلاب الذين لا يستطيعون القراءة أو الفهم في سن العاشرة - وقد بلغت في البلاد منخفضة ومتوسطة الدخل قبل تفشِّي الڤيروس ٥٣٪.

٢. الاعتماد على حلولٍ تعليميَّةٍ جديدةٍ مستندة إلى تكنولوچيَّات الاتصالات والمعلومات، باستخدام الشبكة العنكبوتيَّة. لكن يُلاحظ أن الذين يجنون ثمارها بشكل إيجابي فعَّال هم أبناء الأُسَر الأفضل حالًا؛ إذ يتوقف هذا الاستخدام على الوسائل الممكنة التي توفرها البنية التحتية التكنولوچيَّة في توصيل الخدمة التواصُلية أو البيئة، وتَمكُّن المعلمين من التقنيات العصرية. وتصادف ذلك مشكلات، خاصة بالفجوة الرقمية، منها:

أ- ضمان وصول جميع الطلاب إلى الإنترنت.

ب- فجوة الاستخدام الرقمي، من حيث التفاعل مع الإنترنت.

ج- فجوة المدرسة الرقميَّة، من حيث قدرات وإمكانات النظام التعليمي وإمكانات المدارس والكليات على توفير التعلُّم الرقمي الفردي أو المتكافئ والمتسلسل، بما يلائم جميع الطلاب.

وقد أُجريت دراسة دوليَّة عن طريق البنك الدولي على مديري المدارس في وقت تنفيذ برنامج تقييم الطلاب الدوليين عام ٢٠١٨، عن استعدادات مدارسهم ومُعلِّميهم لإنشاء وإدارة تجارب التعلم الرقمي للطلاب، وبيّنت الدراسة:

أ- رأى المديرون في أكثر من نصف نُظُم التعليم التي شملها الاستطلاع، أن معظم الطلاب في سِنِّ الخامسة عشرة في مدارس من دون منصفة فاعلة عبر الإنترنت لدعم التعليم، وهذه هي الحال في جميع البلدان المشاركة من أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي ومعظم بلاد أوروبا وآسيا الوسطى والشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

ب- رأى المديرون أن المعلمين لديهم مهارات تقنيَّة وتربويَّة للتعلُّم الرقمي، ولاحظ التقرير أن معظم دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ذات الدخل المرتفع لا يحظون بمميِّزات عن الدول متوسطة الدخل.

ج- رأى المديرون أن نسبةً تتراوح بين ٤٥٪ إلى ٨٠٪ من الطلاب في مدارس يوجد بها مصادر فعالة للمعلمين لاستخدام الأجهزة الرقمية المتاحة، من دون فروق بين الدول ذات الدخول المرتفعة والدول متوسطة الدخول.

وخلُص التقرير إلى إنه عندما يتعلق الأمر بعدم المساواة في التعليم، فإن الفجوة الرقمية لا مفرَّ منها في معظم الأنظمة التعليمية في الدول المشاركة في برنامج التقييم الطلابي وعددها اثنتان وثمانون دولة.

٣- الاهتمام الشعبي والرسمي بالتَّمَدُرُس المنزليّ Homeschooling، حيث يدرس الطلاب في منازلهم، وقد يتلقون مساعدات منزلية غالبًا أو من معلمين خصوصيين أحيانًا، مع ملاحظة ارتباط ذلك بإمكانات أُسر الطلاب، وهو ما يؤثر ويتأثر بتكافؤ الفرص التعليمية.

٤- ونحن في زمن عدم اليقين، يُخشى التأخر في بدء العام الدراسي أو انقطاعه وما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من إحداثِ اضطرابٍ كاملٍ في حياة الطلاب. وأهاليهم ومعلميهم. كما يُخشى أن يؤثر ذلك على العام الدراسي الجديد ٢٠٢٠/٢٠٢١م.

٥- تقييم الطلاب من أجل التخرُّج، وهم هنا طلاب السنوات النهائية؛ وبخاصةٍ الشهادات العامة: الثانوية العامة، والدرجات الجامعية الأولى وغيرها. وتتفاقم المشكلة في الدول التي تقلُّ أو تنعدم فيها فرص الحلول الرقمية.

٦- انتعاش الصناعات التعليمية الرقمية، التي تهتم وتركز على التطبيقات التعليمية والمصادر

والمنصَّات الهادفة لتقديم برامج وشهادات، عن طريق الإنترنت وغيره. وكذلك برامج التواصل التي تتيح عقدَ اجتماعاتٍ ولقاءاتٍ عن بُعْد.

٧- وقد حذَّرت اليونسكو من الآثار السلبية لإغلاق المدارس وخطورتها على الفئات المحرومة، وتكلفتها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والثقافية الباهظة، المتمثلة في:

أ- **توقف التعلُّم**: تقدم المدارس التعليم الأساسي، ولكن عند إغلاقها يُحرم الأطفال والشباب من فرص للنمو والتطور، وتأتي مساوئ الإغلاق أشدَّ وطأةً على الدارسين من الفئات المحرومة، الذين يَحظَوْن بفرص تعليمية أقل خارج المدرسة.

ب- **التغذية**: يعتمد الكثير من الأطفال والشباب على الوجبات المَجَّانية أو المنخفضة التكلفة التي تقدمها المدارس؛ من أجل حصولهم على الطعام والتغذية السليمة، ولكن عندما تُغلق المدارس، تتأثر تغذيتهم سلبًا.

ج- **عدم استعداد الأهل لتعليم أولادهم** عن بُعْد أو في المنزل: عندما تُغلق المدارس، غالبًا ما يُطلب من الأهل تيسير تعليم الأطفال في المنزل، وقد يواجهون صعوبةً في أداء هذه المهمة، ولا سيَّما بالنسبة إلى الأهل محدودي التعليم والموارد.

د- **عدم المساواة في إمكانية الانتفاع بمنصات التعلُّم الرقمية**: يمثل غياب الانتفاع بالتكنولوچيا أو ضعف الربط بالإنترنت، عائقًا أمام التعلم المستمر، ولا سيَّما بالنسبة إلى الطلاب الذين ينتمون إلى عائلاتٍ محرومة.

هـ - **التفاوت في رعاية الأطفال**: غالبًا ما يترك الأهل العاملون، الأطفالَ وحيدين عندما تُغلق المدارس في حال عدم توافر خيارات بديلة؛ مما قد يؤدي إلى اتباع هؤلاء الأطفال سلوكياتٍ خطيرة، مثل زيادة تأثير ضغط الأقران وتعاطي المخدرات.

و- **التكلفة الاقتصادية الباهظة**: يُرجَّح ألَّا يتمكن الأهل العاملون من تأدية عملهم عندما تُغلق المدارس بسبب تفرغهم لرعاية أطفالهم؛ مما يتسبب في تراجع الدخل في حالاتٍ كثيرة، ويؤثر سلبًا في الإنتاجية.

ز- **الضغط غير المتوقع على نظام الرعاية الصحية**: غالبًا ما يكون أغلب العاملين في مجال الرعاية الصحية من النساء اللواتي لا يتمكَّنَّ غالبًا من الذهاب إلى العمل بسبب التزامهنَّ برعاية الأطفال نتيجة إغلاق المدارس؛ مما يعني غياب العديد من مُقدِّمي الرعاية الصحية عن أماكن عملهم، التي هي بأشد الحاجة إليهم في وقت الأزمات الصحية.

ح- **ازدياد الضغط على المدارس التي لا تزال مفتوحة**: يشكِّل إغلاق المدارس في بعض المناطق ضغطًا على المدارس؛ بسبب توجيه الأهل والمديرين الأطفال إلى المدارس التي لاتزال مفتوحة.

ط- **ميل نِسَب التوقف عن الدراسة إلى الارتفاع**: إن ضمان عودة الأطفال والشباب إلى المدارس عند إعادة افتتاحها واستمرارهم في الدراسة، يمثل تحديًا؛ خصوصًا عندما يتعلق الأمر بإغلاق المدراس لفترة طويلة.

ي- **العزلة الاجتماعية**: تُعدُّ المدارس مراكز لممارسة الأنشطة الاجتماعية والتفاعل الإنساني، فعندما تغلق المدارس أبوابها، يفقد الكثير من الأطفال والشباب علاقاتهم الاجتماعية التي لها دورٌ أساسٌ في التعلُّم والتطوُّر.

## سياق المشكلة التعليمية:

هذه المشكلة في أصلها مُشْكِل متجمع بين البحث العلمي وأمانه وتأمينه وبين الصحة والتطبيب، وذات أبعاد ثقافية واقتصادية وسياسية وغيرها، نعرض لبعضها فيما يلي بإيجاز لنرى إمكان دراسة علم اجتماع التربية الجديد أو المعاصر لها أم أنها بحاجة إلى تكامل العلم الاجتماعي:

## - البُعد الصحي الطبي:

حذرت منظمة الصحة العالمية من أن فيروس كورونا المُستجَدّ قد لا يختفي أبدًا، وقد يتحول إلى مرض سيكون على البشرية التعايش معه.

لقد أقرَّت الصين بعد محاولاتٍ من التكتُّم والإنكار بوجود الفيروس في مدينة يوهان ذات الثقل الاقتصادي، التي تُعدُّ مركز المعامل والبحث العلمي، يستقطب العديد من العلماء الأمريكيين في مجالاتٍ مختلفة على رأسها الطب.

ولا يزال العالم يبحث عن علاجٍ لما يسبب الفيروس؛ وبخاصة مع زيادة حالات الوَفَيات وسرعة انتشار المرض في جميع أنحاء العالم المتقدم والنامي؛ وبخاصة أن الفيروس يمكن أن ينتقل بالكلام وليس فقط عن طريق (السُّعال والعَطْس).

وهناك تحذيراتٌ من أزمةٍ صحيَّةٍ نفسيَّةٍ عالميَّة، تفوق الفوبيا لأن الموت يحاصر المرضى والمعافين الممكن إصابتهم.

وقد ارتفعت مبيعات الأدوية عالميًا بشكلٍ ملحوظ، نتيجة تجريب أدوية موجودة فعلًا لعلاج المصابين بالڤيروس، كما تحقق شركات الصناعات الكيماوية مكاسب في هذه الفترة لتصنيع الكلور والصودا الكاوية، ودخول شركات في مجال صناعة الكمامات، ومواد التعقيم الأخرى والقفَّازات وغير ذلك. وهذا يعني وجود رابحين بجانب الخاسرين لحيواتهم وصحتهم.

## البعد السياسي:

برز البعد السياسي وأزمة العلاقات الدولية منذ بداية الإعلان عن الڤيروس، في بدء أو تصاعُد حربٍ باردةٍ بين أمريكا والصين، شارك فيها الرئيسان الأمريكي والصيني ووزراء الدولتين والصحف وغيرها من وسائل الإعلام. اتَّهم دونالد ترامب الصين بتضليل العالم، وأعلن وزير خارجيته مايك بومبيو أنه يملك أدلة تؤكد أن الڤيروس جاء من مُختبَر مدينة ووهان الصينية، وردت الصين بأن واشنطن هي سبب انتشار الڤيروس في الصين؛ لأنها أرسلت جنودًا أمريكيين كانوا يحملون الڤيروس إلى مدينة ووهان. وتؤكد الأمم المتحدة على تحوُّل كورونا إلى أزمة حقوق الإنسان، وعدم المساواة في التعامل مع الأزمة يعوق قدرة بعض الناس في الحصول على الخدمات.

ثمَّة مؤشرات على أن الانشغال العالمي بكورونا يهدد بتصاعد الإرهاب والحروب في العالم، حيث تسعى الجماعات المتطرفة لزيادة عمليَّاتها الإرهابيَّة. ونشهد تصاعد المعارك في ليبيا، وزيادة وتيرة التدخل العسكري التركي ونقل إرهابيين من سوريا إلى ليبيا.

هذا فضلًا عن أن الدول التي تشهد صراعات، سيكون شعبها أكثر تضرُّرًا في ظل انهيار البنية التحتية وإمكانات تفشِّي الأوبئة، كما هي الحال في سوريا واليمن.

لكنَّ ثمَّةَ تعاونًا دوليًا في تبادل الخبرات والمعلومات والأدوية والمستلزمات بين الدول لمواجهة الأزمة.

## البعد الاقتصادي:

ويواجه الاقتصاد العالمي تراجع التجارة العالمية، وحدوث ركود اقتصادي إذ توقفت أنشطة اقتصادية عديدة في دول العالم؛ نتيجة حظر التجوُّل وتحديد ساعات العمل، والقيود المفروضة على السفر والتباعد الاجتماعي لإبطاء انتشار المرض.

يُضاف إلى ذلك أن هناك زيادةً تتوقعها اليونيسيف قدرها ١٥٪ في عدد الأطفال الذين يعانون الفقرَ، يقع معظمهم في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى وأمريكا اللاتينية وآسيا. بجانب الصعوبات المالية التي تواجه الأُسَر في هذه البلاد.

ومع القيروس نفسه زادت البِطالَة؛ إلى درجة أن تقريرًا للأمم المتحدة جاء به أن ٨١٪ من القوى العاملة في العالم. التي تُقدر بنحو ٣,٣ مليار شخص، قد أُغلقت أماكن عملهم بشكل كامل أو جزئي.

ويمكن إيجاز البعد الاقتصادي وفقًا لدراسة لصندوق النقد العربي فيما يلي:

أ- تباطؤ نمو الاقتصاد العالَمي في ظل التوترات الاقتصادية التجارية بين الصين والولايات المتحدة وتقلب الأوضاع في كثير من دول العالم، وتوقع انكماش هذ النمو إلى سالب ٣٪ هذا العام، وإمكان استرداده للعافية عام ٢٠٢١.

ب- بطء الطلب العالمي: بسبب تفشِّي القيروس وما يخلقه من هلع وعدم يقين على مستوى القطاع العائلي وقطاع الأعمال، باستثناء الطلب على المستلزمات الصحية، مع تأثر قطاع تصنيع السلع المُعمِّرة؛ وبخاصة في الاقتصادات الناشئة.

ج- شلل التجارة الدولية للسلع والخدمات حول العالم. وقد انخفض معدل نُموِّها من ٤,٧٪ في الربع الأول من عام ٢٠١٩ إلى قُرابة ٢,٨٪ في الربع الثالث من العام ذاته.

د- التأثر السلبي للمنتجات النِّفْطيَّة؛ وبخاصة وقود الطائرات والسيارات لتوقف حركة الطيران وحظر التجول الداخلي عالميًا.

هـ - تأثر القوى العاملة في قطاعي الساحة والنقل، وهما أكثر القطاعات تضررًا، وقطاعات الأماكن التجارية ومناطق التسوُّق والترفيه.

## البعد الاجتماعي:

كان لجائحة كوفيد -١٩ تأثيراتُ واضحةٌ على العلاقات السياسية والاقتصادية وكان لها أيضًا تأثيراتها التي تهدد التماسك الاجتماعي. ولجأت الدول إلى أساليب متنوعة لتوعية شعوبها بخطورة المرض، ولجأت إلى أجهزة المعلومات والإعلام والثقافة لتعريف المواطنين وزيادة حماستهم وحسهم على تقدير المسئولية، لكن النجاح كان متفاوتًا، حتى داخل الدولة الواحدة؛ مما أدى إلى اللجوء إلى التشريعات والاستعانة بسلطات الأمن والضبط غيرها ووفرض عقوبات

صارمة وتدابير وقائية وعلاجية، كالحَجْر الصحِّي والحجر المنزلي، والغرامات المالية للمخالفين لحظر التجول ووضع الكمامات على الأوجه.

وصاحَب ذلك حظر فتح أماكن العبادة قسريًا؛ وبخاصة مع قلَّة وعي الناس بخطورة التجمُّعات والتقارُب، وإلغاء الفعاليات الثقافية والرياضية والاجتماعات والندوات والمَعارِض وغير ذلك.

لقد كشف الوباء وكشفت الجائحة عن فجوة التنمية وغياب مفهومها لدى واضعي السياسات، في البلاد التي لم تهتم كما ينبغي بالإنسان تعليمًا وصحة، وفهمت التنمية فهمًا غير صحيح ليس على أنه تنمية الإنسان تنمية شاملة. خذ فضلًا دولة عظمى كالولايات المتحدة الأمريكية التي أظهرت الجائحة هشاشتها، وهي الدولة الكبرى التي كان يُعوَّل عليها في حماية العالم. لم يأخذ رئيسها الأمر بالجدية المتوقعة لمواجهة كورونا، واتَّهمه الحزب الديمقراطي بانتهاجِ سياساتٍ مُتخبِّطة، والكذب حيال التعامُل مع المرض. لم يجد المواطن الأمريكي الأقنعة الواقية على أقل تقدير.

وبعد، هل يستطيع أي علم من العلوم الاجتماعية وحده ومنها علم اجتماع التربية المعاصر، دراسة مثل هذه القضايا وحده بعيدًا عن العلوم الطبيعية والاجتماعية الأخرى؟ الجائحة قضية صحية طبية المنشأ، أثَّرت على التعليم وصارت قضية تعليمية، تحتاج دراستها إلى (العلم الاجتماعي Social Science) لا علم الاجتماع Sociology، معاصرًا كان أم جديدًا مقارنًا، يتناول القضيَّة التربويَّة في تفاعلاتها مع مجتمعها محليًا وكونيًا.

## أهم المصادر


- الوليد أحمد طلحة: التداعيات الاقتصادية لڤيروس كورونا المستجد على الدول العربية – صندوق النقد العربي – أبريل ٢٠٢٠.
- أنطونيو جوتيريش: الأمم المتحدة تضع خارطة طريق لتحسين الاقتصاد بعد كورونا – أ. ش. أ. – أبريل ٢٠٢٠.
- بي بي سي: ڤيروس كورونا، أجواء حرب باردة بين أمريكا والصين بسبب الوباء – قسم المتابعة الإعلامية – مايو ٢٠٢٠.
- التحالف العالمي للتعليم: التصدي لجائحة كوڤيد –١٩ – مايو ٢٠٢٠.
- ديڤيد كوامن: الفيض، أمراض الحيوانات المعدية وجائحة الوباء التالية للبشر – الجزء الأول – ترجمة

مصطفى إبراهيم فهمي – عالم المعرفة (٤١٥) – أغسطس ٢٠١٤.
- خايمي سافيدرا: التعليم في زمن ڤيروس كورونا، التحديات والفرص – مارس ٢٠٢٠.
- خوان مانويل مورينول وكاس غورتازار: جاهزية المدارس للتعلم الرقمي في رأي مديري المدارس، تحليل من برنامج تقييم الطلاب الدوليين – مجمعة البنك الدولي – أبريل ٢٠٢٠.
- عبد الحليم سالم: أثرياء محنة كورونا، شركات استفادت من الأزمة – أبريل ٢٠٢٠.
- عمر رحمان وآخرون: تداعيات ڤيروس كورونا المستجد على الشرق الأوسط وشمال أفريقيا – مركز بروكجز – الدوحة مارس ٢٠٢٠.
- مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة: مستقبل اقتصادات صناعة الأدوية في ظل أزمة كورونا – الرباط – أبريل ٢٠٢٠.
- معهد التخطيط القومي: التداعيات المحتملة لأزمة كورونا على الاقتصاد المصري – الإصدار رقم ١٥ – مايو ٢٠٢٠.
- يورونيوز: مليون طفل يعانون الفقرَ بسبب تداعيات كورونا – مايو ٢٠٢٠.
- يورونيوز: العالم يدفع ثمنًا يفوق جميع التصورات على جميع المستويات بسبب أزمة كورونا – مايو ٢٠٢٠.
- اليونسكو: الآثار السلبية لإغلاق المدارس – باريس – مايو –٢٠٢٠.